

ابن المعتز وشعره

أيها السادة:

ندع اليوم حديث الشعراء الشعبيين-إن صح هذا التعبير- لنتحدث عن شعراء القصور. أو إن شئتم فسندع اليوم شعراء السوق لنتحدث عن شعراء الملوك. فالشاعر الذي سأحدثكم عنه اليوم ليس أقل من أنه كان أميراً من أمراء القصر العباسي، بل كان في رأي كثير من الناس خليفة عباسياً، وإن كنت أنا لا أرى هذا الرأي لأن بيعة ابن المعتز لم تتم، ولم تكن شاملة، وإنما كانت أشبه بالصورة منها بشيء آخر.

نسب ابن المعتز

ومهما يكن من شيء فشاعرنا عبد الله بن المعتز هو من أمراء هذا القصر العباسي العظيم، وهو سلالة مباشرة لجماعة من كبار الخلفاء الإسلاميين؛ فأبوه المعتز كان خليفة، وجده المتوكل ثم المعتصم ثم الرشيد. وتنتهي هذه السلسلة إلى العباس بن عبد المطلب.

بيئة ابن المعتز وأثرها فيه

وليس الذي يعني هو مكانة ابن المعتز في النسب، وإنما الذي يعني هو هذه البيئة الخاصة التي نشأ فيها ابن المعتز والتي كان لها في تكوينه الفني أثر بعيد جداً، هذه البيئة خليفة أن تدرس بعض الشيء، وأظن أننا إذا درسناها درساً واسعاً مفصلاً، فسنتهي إلى شيء قل أن نظفر به، وهو أننا نحب الشاعر ونعطف عليه، ونقرأ شعره مع شيء من المودة والصدقة قل أن يظفر بهما شاعر من الشعراء الذين ندرسهم عند ما يبعد العهد بيننا وبينهم.

كان ابن المعتز من سلالة الخلفاء، ولد في ظل جده المتوكل، ولكن حياته كانت مزاجاً غريباً من السعادة والشقاء منذ أولها إلى أن انتهت. كانت مزاجاً من هذه السعادة التي يظفر بها أبناء الملوك في حياتهم المترفة الناعمة التي يجنبون فيها ألوان الشقاء، ولا يتعرضون فيها لهذه الخطوب وهذه الظروف السيئة المؤلمة التي تصد الإنسان عن الفن وعن الإنتاج الفني؛ لا لأنها شاقة متعبة فحسب، بل لأنها على مشقتها وعلى أنها متعبة ثقيلة لا تستحق من الرجل أن يقف عندها ويفكر فيها. وربما كان ألم الشاعر من فقره وضيق ذات يده ناشئاً لا عن أنه محروم فحسب، بل عن أن هذا الحرمان يشغله فيصرفه عن جمال الفن، ويصده عن الإنتاج.

فابن المعتز كانت بيئته تعصمه من شر هذه المصاعب وتقويه شر هذه الآلام السخيفة، ولكنها لم تكن سهلة مطردة ناعمة لا يلقي فيها الإنسان مشقة ولا صعوبة، وإنما بدئت بالعنف، وختمت بالعنف.

ولد ابن المعتز قبل أن يقتل جده المتوكل بأربعين يوماً، فهو إذن لم يكد يتقدم في الحياة حتى سفك دم جده، وقد كان قتل المتوكل ابتداء شر عظيم.

وقد لقي القصر عناء شديداً من هذه النكبة، فتفرق أهله، ونكب أبناء المتوكل، وبعد مشقة عاد إليهم الأمر. وكان الذي تولى هذا الأمر هو المعتز أبو عبد الله وكان عند تولي الخلافة شاباً حدثاً لا يتجاوز العشرين من عمره، ويقول بعضهم إنه كان في الثامنة عشرة من عمره. ويقول إنه كان من أجمل الخلفاء العباسيين وجهاً وأحسنهم شكلاً، وأرقهم خلقاً واصفاً طبعاً؛ ومن أبهم للهو وأشدهم رضا عن الحياة وابتساماً لها. وكانت أيامه حين تسكن عنه الفتن والخطوب سروراً كلها ولهواً كلها، وكان له صديق من الترك في سنه تقريباً حلو الشمائل كالمعتز وضيقاً كالمعتز حلو الخلق كالمعتز، يقال له يونس بن بغا. وكان الخليفة مرحاً، فتي من فتيان قریش قد سهلت له الحياة وأطعمته النعمة في اللذات. ويقال إنه كان شغوفاً بالصيد. حديث العباس بن المفضل قال: كنت مع المعتز في الصيد فانقطع عن الموكب، وأنا ويونس بن بغا معه، ونحن بقرب منظره وصيف. وكان هناك دير وفيه ديراني يعرفني واعرفه، نظيف ظريف مليح الأدب واللفظ. فشكا المعتز العطش فقلت: يا أمير المؤمنين. في هذا الدير ديراني أعرفه خفيف الروح لا يخلو من ماء بارد، افترى أن نميل إليه؟ قال: نعم. فجننا. فأخرج لنا ماء بارداً، وسألني عن المعتز ويونس فقلت: فتيان من أبناء الجند، فاعل: بل مفلتان من حور الجنة. فقلت له: هذا ليس في دينك. فقال: هو الآن في ديني، فضحك المعتز. فقال له الديراني: أتناكلون شيئاً؟ قلت: نعم. فأخرج شطيريات وخبزاً وإداماً نظيفاً، فأكلنا أطيب أكل. وجاءنا بأظرف إنسان فاستظرفه المعتز، وقال لي: قل له فيما بينك وبينه، من تحب أن يكون معك من هذين لا يفارقك؟ فقلت له. فقال: كلاهما وتمرا. فضحك المعز حتى مال على حائط الدير فقلت للديراني:

لا بد من أن تختار. فقال الاختيار والله في هذا دمار، وما خلق الله عقلا يميز بين هذين. ولحقهما الموكب فارتاع الديراني. فقال له المعتز: بحياتي لا تتقطع عما كنا فيه، فإن لمن ثم مولى ولمن ها هنا صديق. فمزحنا ساحة، ثم أمر بخمسمائة ألف درهم. فقال: والله ما أقبلها إلا على شرط. قال: وما هو؟ يجيب أمير المؤمنين دعوتي مع من أراد. قال: ذلك لك فاتعدنا ليوم جئناه فيه. فلم يبق غاية، وأقام للموكب كله ما أحتاج إليه، وجاءنا بأولاد النصاري يخدموننا. ووصله المعتز يومئذ صلة سنوية، ولم يزل يعتاده ويقيم عنده.

هذه الحياة ألهمت المعتز نفسه ذوقاً فنياً خالصاً، فكان شاعراً وشاعراً مجيداً. ولو قد مد له فيعمره لكان كابنه شاعراً بناطقة، ولكنه أعجل فم تطل أيامه. وإن عني من الشعر بهذه الفنون التي تلائم القصر، وتلائم المجون والدعابة، أو التي تلائم حياته الخاصة، وإن يطلب من المغنين والمغنيات أن يغنوه فيما صنع من الشعر، وكان إذا قال بيتاً وطلب من المغنين غناءه طرب وطرب الندماء، وأنفقوا يومهم أو يومهم وليلتهم يسمعون ويشربون. ولكن هذه الحياة لم تطل، وهذا النعيم لم يدم، فقد كانت حياة القصر العباسي شديدة التعقيد، وكأنها ورثت من القصر الفارسي القديم كل ما كان فيه من اضطراب وعبث وكيد حد له.

كان القصر موزعاً بين الأتراك وغير الأتراك من رؤساء الجيش وكان الخليفة مضطراً إلى أن يصانع أولئك وهؤلاء، وهو في أثناء هذا كله عرضة لكيد الكائدين ومكر الماكرين. ولم تمض على المعتز أعوام ثلاثة أو أربعة حتى ساءت أحواله، وتكررت له جنود، وكاد له رؤساء هذا الجند. ومن الحق أن نعترف أنه هو أيضاً كان يكيد لرؤساء هذا الجند خوفاً منهم. ومن الحق أيضاً أن نلاحظ أن أخلاق الأمراء والخلفاء انتهت من الفساد إلى حد لم نعرفه من قبل؛ فقد كان الخلفاء يمكرون بأبائهم وإخوتهم وحياتهم كلها مر في مكر. فالعز قد غدر بالخليفة السابق المستعين، أنزله عن الخلافة، وأخذ منه عهداً خلع فيه نفسه وأمنه على نفسه وأهله وماله، وقيل منه أن يقيم في واسط آمناً مطمئناً، ولم يلبث أن أرسل إليه من قتلته شر قتلة. فقد دار الدهر على المعتز بمثل ما دار به على المستعين، وعلى المتوكل من قبل، ثم على باقي الخلفاء العباسيين حتى انتهاء دولتهم.

أقبل الجند ذات يوم يطلبون إلى المعتز أرزاقهم، ولم تكن في خزائن القصر أموال، فاعتذر هو، وألحوا في الطلب، وما زالوا يحلون وهو يعتذر، وأخذوا يفاوضونه حتى انتهوا إلى خمسين ألفاً، فطلب إلى أمه أن تعينه. وعجزت أمه عن هذه الإعانة، فدخلوا عليه، وكان معتلاً بعض الشيء، فجروه حتى أخرجوه ووقفوه تحت الشمس في صحن الدار، فأخذ يتألم من الشمس، وقال من رآه: إنه كان يرفع رجله ثم يضعها تأدياً من الحر.

وجاءوا بابن عمه المهدي بن الواثق، جاءوا به على أن يكون خليفة، فأبى أن يجلس على السرير حتى يرى الخليفة. فجئ له بالمعتر من سجنه. فما رآه عانقه وأخذ يعتذر إليه ويخرج مما يدعى إليه، وأخذ المعتر، يبرأ من الخلافة، وما زال المهدي يلح عليه والمعتر يخلع نفسه، حتى قال له: فأنا إذن في حل من بيعتك. قال: نعم أنت في حل من بيعتي. فذاك أعرض المهدي بوجهه عن المعتر. وأخذ الجند فردوه إلى سجنه ولبث فيه حتى قتل.

عندما قتل المعتر سنة ٢٥٥ لم يكن عبد الله بن المعتر، قد جاوز الثامنة أو التاسعة، كان في هذه السن الصغيرة التي لا يستطيع الطفل معها أن يفكر إلا بقدر، ولكنه مع ذلك قد نشأ في هذه البيئة المملوءة بالهموم. ومن المؤكد أن حياته قد تأثرت بهذا كله، وأن طبيعته لم تخل من حزن ومن حزن ربما دفع إلى بؤس ويأس مصدرهما ما يشاهده حوله من الدماء المسفوكة، والتي كانت تسفك باستمرار طول هذا العصر. ومن الغريب أننا لا نادرنا عن نشأة ابن المعتر شيئاً كثيراً، ويظهر أن السبب في هذا أن كثيراً من الكتب التي وصت عن ابن المعتر وعصره لم تصل إلينا، إما لأنها ضاعت أو لأنها لا تزال مجهولة مفرقة في دور الكتب، وكنا ننتظر أن نجد شيئاً مفصلاً عن حياته أو عن محنته في تاريخ الطبري، ولكن الطبري كتب هذا القسم في عهد المقتدر، فكان متحفظاً أشد التحفظ. ويظهر أن كثيراً من أخبار ابن المعتر كانت مدونة في القرن الرابع، وأن الناس كانوا يختلفون فيه اختلافاً شديداً، فمنهم من أحبه ومنهم من كان يكرهه ويسرف في الطعن عليه. وأبو الفرج عند ما يتحدث عن ابن المعتر يدافع عنه دفاعاً حسناً، دفاع مقتنع بفضله وجلالة قدره، ويهاجم أولئك الذين هم أحق بالنقد، والذين يضعون من شعره وليس لهم شعر يشبهه. إلى آخر ما يقول أبو الفرج دفاعاً عن ابن المعتر، وطعنًا على ناقديه.

نشأ ابن المعتر نشأة لا تخلو من نعمة، نشأ في قصور الخلفاء، وكلن حياته لم تخل من حرمان. كان منعماً بالقياس إلى الذين كانوا يعيشون في ظلم وذلك من أبناء الأمراء والخلفاء.

عاش هذه العيشة التي كانت فيها نعمة، ولكنها لا تخلو من ذل كثير. لم يكن في أول أمره غنياً ولا ميسوراً، وإنما كانت حاله يسيرة بسيطة والظاهر أن تربيته كانت إلى جدته أم المعتر، وهي أم رومية، تسمى "قبيحة". ومع هذا فقد كان لابن المعتر مؤدبون من خيرة العلماء الذي عاشوا في بغداد. ومن أشهر هؤلاء المؤدبين أحمد بن سعيد الدمشقي الذي يثني عليه المؤرخون كثيراً، وحدث في بغداد وروى عنه كثير من المؤرخين.

شعره إلى مؤدبه أحمد بن سعيد

ويحدثنا أحمد بن سعيد، أنه كان يؤدب ابن المعتز، وكانت سنه في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة، فبلغه أن البلاذري المؤرخ قد سعى عند جدته حتى أذنت له أن يلقي الأمير ساعات في النهار، أي أن يكون بين الذين يؤدبون الأمير. فغضب أحمد بن سعيد وجلس في بيته مخزوناً، لأنهم أشركوا معه رجلاً آخر في تأديب هذا الأمير، هو البلاذري. فكتب إليه ابن المعتز ابيناً رواها ياقوت، وهي أول شعر نعرفه للشاعر وهو في الثالثة عشرة من عمره:

اصبت يا بن سعيد حُزت مكرمةً	عنها يُقَصِّر من يحفى وينتعل
سريلتني حكمةً قد هذبت شيمي	وأجبت غَرب ذهني فهو مُشتعل
أكون إن شئت قُسا في خطابته	أو حارثاً وهو يَم الفخر مُرتجل
وإن أشأ فكزيد في فرائضه	أو مثل نعمان ما ضاقت بى الحيل
أو الخليل عروضياً أخا فطن	أو الكسائي نحوياً له عل
تغلى بداهة ذهني في مركبها	كمثل ما عرفت آبائي الأول
وفي فمي صارم ما سلّه أحدٌ	من غمده فدرى ما العيش والجدل
عُقباك شكر طويل لا نفاد له	تبقى معالمه ما أطت الإبل

هذا الشعر على خلوه من الجمال الفني، أو على خلوه من الشعر، كثير على فتى في الثالثة عشرة من عمره، ولكنه على كل حال يمثل غرور الصبي، وإعجاب الفتى بنفسه، ويمثل حب الفتى لأستاذه، وحرصه على أن يريه.

فما رأيكم في صبي في الثالثة عشرة من عمره، ويرى أنه قادر أن يكون خطيباً كقس، وشاعراً كالحارث بن حلزة، وبارعاً في الميراث كزيد بن ثابت، وبارعاً في الفقه وحيله كأبي حنيفة، وماهرًا في العروض كالخليل، وماهرًا في النحو كالكسائي، يبلغ من هذا كله في هذه السن ما يريد، ثم يختم هذا الشعر بقوله: "عقباك شكر طويل لا نفاد له" ويختم هذا البيت بهذا الشطر

الذي يدل على أن الشاعر كان يتكلف محاكاة القدماء، ويستعين بتعبيراتهم. فيقول في عجز هذا البيت: "تبقى معالمه ما أطت الإبل".

على كل حال نجد في هذه الأبيات مقدمة لميل ابن المعتز الذي سيظهر شيئاً فشيئاً، في أثناء حياته التي لم تكن طويلة، بل كانت أقصر مما كان ينبغي لشاعر نابغة كابن المعتز.

حياته

كانت حياة ابن المعتز متنوعة مختلفة أشد الاختلاف، كما يظهر من هذه الأبيات، فهو قد عني بكل ما يعني به المثقفون في عصره: عني بالأدب خطابة وشعراً وكتابة، وعني بالفقه ميراثاً وأحكاماً، وباللغة والنحو والعلل النحوية، ثم عني بأكثر من هذا، بما يعني به المترفون والأمراء بنوع خاص، فقد كان مسرفاً في ذاته، محباً للصيد، مسرفاً في هذا الحب، وكان صاحب لهو، منه الحسن ومنه الرديء. ولكنه على كل حال استطاع أن يضمن لنفسه راحة وأمناً لبعده عن الحياة السياسية العملية، فلم يطمع في الخلافة ولم يسع إليها، فرضي عنه الخفاء وأعانوه ومكنوه من هذه الحياة الحلوة التي فرغ فيها للذات الفنية والعقلية والجسمية.

كان ابن المعتز شغوفاً باللغو كما قلت، وكان مفتوناً بجارية يقال لها نشر^(١)، وغلّام يقال له نشوان. وكانت حياته مفرقة بينهما، يلهو مع هذه ويعبت بذلك. وله أخبار من هذين الحبيبين مفرقة في الكتب. يتحدث جعفر بن قدامة أنه دخل مرة على ابن المعتز فوجده محزوناً شديد الكآبة لأن نشوان مغضب. وقد بذل له ابن المعتز ما استطاع، لإرضاء هذا الغلام، فلم يستطع. وهو ينشد جعفرًا هذه الأبيات:

بأبي أنت قد تماديت	ففي الهجر والغضب
واضطباري على صدو	دك يوماً من العجب
ليس لي إن فقدت	وجهك في العيش من أرب
رحم الله من أعان	على الصلح واحتساب

(١) سماها صاحب الأغاني "نشر" وسماها الصولي أكثر من مرة "شرة".

قال جعفر فنهضت: ودخلت على نشوان، ومازلت أدأوره وأترضاه حتى رضي، فخرجت به على ابن المعتز، وأخذنا نشرب نهارنا كله على الغناء بهذه الأبيات.

وكان ابن المعتز رقيقاً في فنه هذا، وفي حبه، وفي لهوه. زعموا أن أصحابه اجتمعوا إليه ذات يوم، وكانت تغنيهم جارية قبيحة الشكل جداً، وكان صوتها عذباً، وإن ابن المعتز مفتوناً بصوتها، فكان يداعب هذه الجارية القبيحة ويسرف في مداعبتها، فلما قامت قال له بعض ندمائه: ما الذي تحب من هذه الجارية الشوهاء؟ فقال:

قلبي وثَّاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهاواه

لم يكن لهو ابن المعتز موقوفاً على حياته في القصر. وإنما كانت ينتقل معه لهوه وذاته إلى الأماكن التي يستطيع مثله أن ينتقل إليها. وأظنكم تذكرون دير "عبدون" وهذه الأبيات:

سقى المطيرة ذات اتلظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر
يا طالما نبهتني للصبح به في ظلمة الليل والعصفور لم يطر
أصوات زهبان دير في صلاتهم سود المدارع نعارين في السحر
مزنرين على الأوساط قد جعلوا على الرعوس أكاليلاً من الشعر
كم فيهم من مليح الوجه مكتحل بالسحر يطبق حفيه على حور
لاحظته بالهوى حتى استقاد له طوعاً و أسلفني الميعاد بالنظر
وجاءني في ظلام الليل مستتراً يستجل الخطو من خوف ومن حذر
فقت من أفرش خدى في الطريق له ذلاً وأسحب أذيالي على الأثر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامه قد قدت من الظفر
وان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

فنه

هذه الأبيات التي سمعتموها الآن تعطيكم نكرة واضحة بعض الوضوح، عن فن ابن المعتز في الشعر، فهو مطبوع ليس متكلفاً ولا متعملاً في شعره، وهو يثر السهل على الغريب، وهو حريص ما استطاع على جزالة اللفظ، وهو يعني بهذه المعاني المترفة، التي تلائم حياته وبيئته. وهو شغوف بفن خاص من فنون الشعر، يظهر أنه قد تفوق فيه على الشعراء، وهو فن الوصف والوصف المادي بنوع خاص، ووصف الأشياء المادية الجميلة التي تلائم هواه، وهو من أكثر الشعراء تشبيهاً، ومن أبرعهم في هذا التشبيه، وإن كان في شعره شيء من التكلف والبحث والغوص، فهو إنما ينفق هذا التكلف في إجادة التشبيه وإجادة الاستعارة. ولكنه ليس كأبي تمام وابن الرومي متعمقاً باحثاً عن المعاني العويصة، التي يكدر الإنسان في فهمها ويجد مشقة في ذلك، إنما هو يبحث عن طرائف الأشياء؛ ووجود تشبيهه قريبة، يفهمها كل إنسان في سهولة ويسر، وفي غير مشقة ولا عناء.

وانظروا إلى هذه الأبيات التي تعطينا فكرة واضحة عن الفن الذي كان ابن المعتز يحبه، والذي يعتمد على النظر أكثر من اعتماده على أي شيء آخر:

حبـــــــــــــــــذا أذار شـــــــــــــــــهراً	فيه للـــــــــــــــــزور انتـــــــــــــــــشار
يـــــــــــــــــنقص الليل إذا جــــــــــــــــاء	ويـــــــــــــــــمتدّ النهــــــــــــــــار
وعــــــــــــــــلى الأرض اخــــــــــــــــضــــــــــــــــرار	واصـــــــــــــــــفرار واحمــــــــــــــــرار
ونقــــــــــــــــشــــــــــــــــه آس ونســــــــــــــــرين	وورــــــــــــــــد وبهــــــــــــــــار

طرق ابن المعتز فنوناً مختلفة من الشعر، ولكن الفني الذي عني به عناية خاصة وأنفق فيه جهداً حقيقياً هو ما يتصل بالوصف من ذكر الخمر ووصفها، واللهو والمجون والدعابة، ومع ذلك فلا ابن المعتز مدح مدح به جماعة من الخلفاء، وله هجاء وله رثاء، وهو لم يقصر في مدحه ورثاءه على الخلفاء، بل مدح الطاهرين وآل وهب، وله رثاء في هؤلاء كذلك.

الشعر التعليمي بينه وبين عبد الحميد

ولكني لا أريد ولا أستطيع أن أتحدث إليكم عن هذه الفنون التي عني بها ابن المعتز. وإنما أقف وقفة قصيرة على نوع عني به عناية خاصة. ولم يكن يشبهه فيه إلا أبان بن عبد

العميد اللاحقي... هذا الفن هو الشعر التعليمي. (Poesie Didactique) والذي يذهب فيه الشعراء مذهب التعليم، والذي تحول على مضي الزمن حتى أورثنا هذا النظم التعليمي الذي نراه في ألفية ابن مالك وغيرها من المنظومات التي كانت تحفظ وتدرس في الأزهر إلى وقت قريب.

يظهر أن أبان هو أول من عني بهذا الفن، فقد نظم كليلة ودمنة ونظم في الفقه، ونظم ابنه حمدن في الحب، وبقي من هذا النظم شيء يختلف قلة وكثرة ^(١) أما ابن المعتز فقد سلك طريقة "أبان" ولكنه لم يعن بالفقه ولا بالحب ولا بهذه الأشياء التي عني بها أبو العتاهية أيضًا كالزهد، وإنما نظم في أشياء أخرى، وبقي لنا منها كتابان نجدهما في ديوانه: أحدهما في تاريخ الخليفة المعتضد - وبعض النقاد والأدباء يرون أن هذه المنظومة مظهر من فنون الشعر القصصي - وإنما قصد ابن المعتز أن ينظم حياة المعتضد، أو سيرة المعتضد في حياته العامة، والأعمال الكبرى التي قام بها هذا الخليفة العظيم. أما كتابه الثاني فهو إلى الدعابة أقرب، وهو في ذم الصبوح أما الكتاب الأول فهو كغيره من المتون، يبتدئ.

باسم الإله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان

الحمد لله على آلائه أحمدده والحمد من نعمائه

أبدع خلقًا لم يكن فكانا وأظهر الحجة والبيانًا

ثم يصلى على النبي ويفتخر بما ورث بنو العباس عن النبي، وينتهي من بني العباس إلى الخليفة المعتضد فيذكر أعمال الخليفة. وإذا كانت هناك ملاحظات فأهمها أنه لم يرتب قصيدته ترتيبًا منطقيًا، بل اضطرب. وأغلب الظن أن ابن المعتز اضطرب أن يضيف إليها في أواخر أيام المعتضد، أو أن ينظم ث يضيف إليها بعد ذلك. وهو يذكر ما كان من جهاد المعتضد لأصحاب الفتن في فارس والشام ومصر والجزيرة والحجاز واليمن. ووصفه لهذه الفتن وبلاء الخليفة في إزالة هذه الفتن من أجمل الوصف وأبدعه.

انظروا إلى هذه الأبيات:

قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهبًا في الورى مشاعا

(١) تجدون ما بقي من هذا النظم في كتاب الأوراق للصولي.

مَذَلَّلاً لَيْسَتْ لَهُ مَهَابُهُ

وَكُلَّ يَوْمٍ مَلِكٌ مَقْتُولٌ

أَوْ خَالَعٌ لِلْعَقْدِ كَيْمًا يَعْنِي

وَكَمْ أَمِيرٌ كَانَ رَأْسُ جَيْشٍ

وَلَكِ يَوْمٌ شَغْبٌ وَعَصَبٌ

وَكَمْ فَتَى قَدْ رَاحَ نَهْبًا رَاكِبًا

فَوْضَوْعُوا فِي رَأْسِهِ السَّيَاطَا

وَكَمْ فَتَاةٌ خَرَجَتْ مِنْ مَنْزِلٍ

وَفَضَحُوهَا عِنْدَ مَنْ يَعْرِفُهَا

وَحَصَلَ الزَّوْجُ لَضَعْفِ حَيَاتِهِ

وَكُلَّ يَوْمٍ عَسْكَرًا فَعَسْكَرًا

وَيَطْلُبُونَ كُلَّ يَوْمٍ رِزْقًا

كَذَاكَ حَتَّى أَفْقَرُوا الْخَلَافَةَ

فَتَلَّكَ أَطْلَالٌ لَهُمْ قَفَارًا

بِالتَّلِّ وَالْجَوْسِقِ وَالْقَطَاعِ

يَخَافُ إِنْ طُنَّتْ بِهِ ذُبَابُهُ

أَوْ خَلَفَ مُرْوَعٌ ذَلِيلٌ

وَذَاكَ أَدْنَى لِلرَّذَى وَأَدْنَى

قَدْ نَغَضُوا عَلَيْهِ كُلَّ عَيْشٍ

وَأَنْفُسٌ مَقْتُولَةٌ وَحَرْبٌ

إِمَّا جَلِيسٌ مَلِكٌ أَوْ كَاتِبًا

وَجَعَلُوا يَرْدُونَهُ شَطَاطَا

فَغَضَبُوهَا نَفْسَهَا فِي الْمَحْفَلِ

وَصَدَقُوا الْعَشِيقَ كَيْ يَقْرِفَهَا

عَلَى نَوَاحِيهِ وَنَثَفَ لَحْيَتَهُ

بِالْكَرْخِ وَالْدُورِ مَوَاتِنًا أَحْمَرًا

يَرُونَهُ دِينًا لَهُمْ وَحَقًّا

وَعُودُوهَا الرَّعْبَ وَالْمَخَافَةَ

تَرَى الشَّيَاطِينَ بِهَا نَهَارًا

كَمْ ثَمَّ مِنْ دَارٍ لَهُمْ بِلَاقِعِ

كانت تزار زمناً وتعمّر ويتقي أميرها المـؤمر

وتصل الخيل على أبوابها ويكثر الناس على حبابها

ولم يخرج ابن المعتز عن مذهب الشعر الخالص إلا عن قاعدة واحدة هي التزام القافية كالذين كانوا من قبله، لأن طبيعة هذا النظم لا تحتل قافية واحدة، ولكنه في ألفاظه مؤثر لأجل الألفاظ، وفي تشبيهاته مؤثر لأبدع التشبيهات، ويستطيع أن يلائم بين الشعر والتاريخ، أو بين التاريخ والأشياء المألوفة. ولهذه القصيدة مزية أخرى ربما كنا نحن في هذا العصر الذي نعيش فيه أقدر على إكبارها وتقديرها والشعور بها من الذين كانوا يعيشون في عصره، فهو يصور الفساد الذي وصلت إليه أمور الدولة قبل المعتضد، ويصور الفساد من جميع نواحيه الفردية والاجتماعية، ويصور هذا تنصيراً مؤثراً جداً، فهو يصور لنا تاجراً اتسعت ثروته فنفس عليه بعض الأمراء وطمع فيما في يديه، فيأتي ويزعم له أن عنده ودائع للسلطان ويطلب منه أن يدفعها إليه؛ لأنها وديعة قد أودعها الحاكم عنده. فيأتي التاجر ويقسم ما استودعه السلطان مალًا، وإنما هو ماله، ولكن الأمير يأبى إلا أن يكون مال هذا التاجر وديعة السلطان، فيأخذ التاجر فيحبسه ويعذبه ويوكل به من يلقون إليه ألوان العذاب ليلاً ونهاراً، حتى يؤثر الموت على الحياة أو يؤثر الراحة على ما عنده من المال، فإذا نزل عما عنده من المال تركوه. انظروا إلى هذه الأبيات:

وتاجر ذي جوهر ومال كان من الله بحسن حال^(١)

قيل له عندك للسلطان ودائع غالية الأثمان

فقال لا والله ما عندي له صغيرة من ذا ولا جليله

وإنما رحبت في التجارة ولم أكن في المال ذا خسارة

فدخنوه بدخان التين وأوقدوه بنقـال اللين

(١) في الديوان: "بأحسن حال".

حتى إذا مل الحياة وضجر وقال ليت المال جمعاً في سقر

أعطاهم ما طلبوا فأطلقا يستعمل المشي ويمشي العنقا

ويعصور بنوع خاص ما كان يثيره جامعوا الضرائب، وما كان يلقاه دافعوا الضرائب من الجهد والمشقة في أداء ضرائب ربما لم يكن من الحق عليهم أن يؤدوها، وعندما كانوا يطالبون بأضعاف ما كانوا يؤدون. ويعصور لنا الرجل الذي تطلب منه الضريبة وهم يشدونّه إلى شجرة أو إلى جذع، ويعذبونه لطمًا ولكما، وهو يستغيث ويدعو الخليفة ويدعو العدل، ولا يجيبه إنسان، حتى إذا شق عليه الأمر طلب إلى الذين يعذبونه أن يلتمسوا له المرابين ليقترض منهم. ويأتون له بهؤلاء فيساومونه ويساومهم، ونيتهم الأمر بأن يرهن إليهم عقاره ويقدموا إليه ثمنًا بخسًا أو قرضًا يسيرًا، فيأخذه ويدفعه إلى هؤلاء. وحينئذ وحينئذ فقط يرسلونه ويخلون بينه وبين الحياة. أنظروا إلى هذه الأبيات:

فكم وكم من رجل نبيل ذي هيبة ومركز جليل

رأيتُه يعتل بالأعوان إلى الحبوس وإلى الديوان

حتى أقيم في جحيم الهاجره ورأسه كمثّل قـدر فـائره

وجعلوا في يده حبالا من قنـب يقطع الأوصالا

وعلقوه في عري الجدار كأنه برّادة في الدار

وصفّقوا قفاه صّفق الطبل نصّباً بعين شامت وخل

وحمّروا نقرته بين النقر كأنها قد خجلت ممن نظر

إذا استغاث من سعيير الشمس أجبه مستخرج برّفس

وبب سبحان عليه الزيتا فصار بعد برّه كميتّا

ولم يكن مما أرادوا بد ^(١)	حتى إذا طال عليه الجهد
قرضاً وغلا بيعتهم عقارا	قال ائذنوا لي أسأل التجارا
وطوقوني منكم إنعاما	وأجلوني خمسة أياما
ولم يؤمل في الكلام منفعه	فضيقوا وجعلوها أربعة
وأقرضوه واحداً بعشره	وجاءه المعينون الفجرة
وحلفوه بيمين البيعه	وكتبوا صكا ببيع البيعه
ولم يكن يطمع في قرب الفرج	ثم تأدى ما عليه وخرج
كانهم كانوا يذلوناه	وجاءه الأعوان يسألونه
وخمشوا أذعه وهامته	وإن تلكأ أخذوا عمامته

يصور لنا ابن المعتز هذا كله، ويصوره على أنه كان حياة الناس قبل المعتضد، فلما جاء المعتضد بطش بهؤلاء الظالمين، وما زال ببعضهم حتى قتلهم، وما زال ببعضهم حتى سجنهم، وما زال ببعضهم الآخر حتى كفهم عن الظلم، أكان الأمر كما قال ابن المعتز؟ لا أدري.

وربما كان عصر المعتضد كغيره من العصور التي سبقتة، ولكن مما لا شك فيه أن خلافة المعتضد كانت نوعاً من النهضة، بل نوعاً من إحياء الأمل بعد هذه الفترة القصيرة التي قضاها المسلمون عامة بين عهد المتوكل وعهد المعتضد. ثم إذا أراد ابن المعتز أن يعرض للموضوع الذي طرقة في الكتاب الآخر كان طريفاً حقاً، وكان منطقياً في هذا الكتاب أكثر مما

(١) في الديوان: "مما أراد بد".

كان في الكتاب السابق. وهذه الأرجوزة ليست مسرفة في الطول، لكنها ليست قصيرة وترتيبها يسير. فابن المعتز يتخيل أن صاحباً له أنرك عليه شرب الخمر في المساء وقال له: مالك لا تصطبج، ومالك لا تؤثر الصبح على الغبوق، فهو يستطيع أن يظهر ك على ما في البساتين من جمال، فيصور جمال الرياض والبساتين توصراً هو آية في الإبداع الفني. لا أظن أن أحداً قد أستطاع أن يأتي بمثله في تشبيهاته واختراع المعاني البديعة التي تثيرها هذه الرياض. انظروا إلى هذه الأبيات:

لي صاحبٌ لامني وزادا	في تزكى الصبح ثم عادا
قال ألا تشرب ^(١) بالنهار	وفي ضياء الفجر والأسحار
إذا وشى بالليل صُبح فافتضح	وذكر الطائر شجو فصوح
والنجم في حوض الغروب وارد	والفجر في إثر الظلام طارد
ونفض الليل على الورد الندى	وحركت أغصانه ريح الصبا
وقد بدت فوق الهلال كُرتَه	كهامة الأسود شابت لحيتَه
فنون الدار ببعض نوره	والليل قد أزيح من ستوره
وقدّت المجرة الظلاما	تحسبها في ليل ها إذا ما
تنفس الصبح ولما يشتل	بين النجوم مثل فرق مكتهل
وقال شرب الليل قد آذانا	وطس العقول والأذهانا

(١) في الديوان: "و قال لا تشرب"

أما ترى البستان كيف نوراً
وضحك الورد على الشقائق
في روضة كحلة العروس
وياسمن في ذرى الأغصان
في روضة كحلة العروس
والسرو مثل قطع الزبرجد
وفرش الخشخاش جيباً وفتق
حتى إذا ما انتشرت أوراقه
صار كأقداح من البلور
وبعضه عريان من أثوانه
تبصره بعد انتشار الورد
والسوسن الأبيض منشور الحلل
نور في حاشيتي بستانه
وقد بدت فيه ثمار الكبر
وحلق البهار فوق الآس
حبال نسج مثل شيب النصف
وجلنا مثل جمر الخد
والأقحوان كالثنائيا الغر

ونشر المنثور برداً أصفرًا
واعتنق القطر اعتناق الوامق
وحزم كهامة الطاووس
منتظمًا كقطع العقيان
وحزم كهامة الطاووس
قد استمد الماء من ترب ندى
كأنه مصاحف بيض الورق
وكاد أن يرمي إلينا ساقه
كأنما تجسمت من نور
قد خجل البائس من أصحابه
مثل الدبابيس بأيدي الجند
كقطن قد مسه بعض البلبل
ودخل البستان في ضمانه
كأنها حمائم من عنبر
جمجمة كهامة الشماس
وجوهر من زهر مختلف
أو مثل أعراف ديوك الهند
قد صقلت توارها بالقطر

فإذا فرغ هذا صاحب من وصف الرياض وجمالها وذكر اللذة التي يحسها الشاربون في الصباح، وقال ابن المعتز إني لا أريد خلافك، فأنا مستعد لأن أصطبج معك، فإذا كان الليل فبت عندي، ثم إذا أصبحنا غدونا على لهونا. فيؤكد له صاحبه أنه سيصطبج معه ويعتذر بأنه لا يستطيع أن يمضي الليل عنده، فهو سيأتي في الصباح. ويمضي ابن المعتز يرقبه هو وأصحابه فيأخذون في شرابهم ولهوهم، فإذا تقدم النهار أتى صاحبنا خريان من هذا الإبطاء. أنظروا إلى هذه الأبيات:

ثم مضى يوعد بالبكور	وهز رأساً فرح مسرور
فقمّت منه خائفاً مرتاعاً	وقلت ناموا ويحكم سراعاً
لتأخذ العين من الرقاد	حظاً إلى تغليّة المنادى
فمسحت جنوبنا المضاجعاً	ولم أكن للنوم قبل طائعاً
ثمّة فمنا والظلام مطرق	والطير في أوكارها لا تنطق
وقد تبدى النجم في سواده	كحلة الراهب في حداده
ونحن نصغي السمع نحو الباب	فلم نجد حساً من الكذاب
حتى تبدت خمرة الصباح	وأوج الندمان صوت الراح
وقامت الشمس على الرعوس	وملك السكر على النفوس
جاء بوجهه بارد التبسم	مفتضح لما جنى مزم
يعثر وسط الدار من حيائه	وينتف الأهداف من رذائه
فقطع القوم به حتى بدر	وافتح القول بعى وحصر
وقال يا قوم اسمعوا كلامي	لا تسرعوا ظمّاً إلى ملامي
فجاءنا بقصة كاذبه	لم يفتح القلب لها أبوابه
كعذر العنين يوم السابع	إلى عروس ذات حظ ضائع

قال اشربوا فقلت قد شربنا	أتيتنا ونحن قد سكرنا
فلم يزل من شأنه منفردا	يرفع بالكأس إلى فيه يدا
والقوم من مستيقظ نشوان	أو غارق في نومه وسنان
كأنه آخر خيل الحلبه	له من السواس ألف ضربه
مجتهدا كأنه قد أفلحا	يطلع في آثارها مفتحا

وينتھز ابن المعتز هذه الفرصة فيقول:

أما أنا فلا أحب الصبوح. وهنا يذكر لنا الأسباب التي من أجلها يكره الاصطباح، فيقول: إذا كان الشتاء فشرب الخمر مع الفجر يعرض للبرد، وهم محتاجون إلى أن يستدفئوا، ولكن الشرر يتطاير من النار فيحرق ثياب الشاربين، وربما أصاب جلودهم وعيونهم، وربما جاء طارق من أصحاب الفقه والاحتشام فنكره أن يرانا نشرب، فنرفع الكؤوس ونقلع عن اللذة ونجالسه، ولعله يطيل، وإذا صرف، فلعل شيئاً مكروهاً أن يصيبهم كأن يأتيهم كتاب فيه ما يكرهون. أما في الليل فهم بمأمن من هذا، فإذا كان الصيف فما يصطبحون حتى سل الصباح سيوف الحر، فإذا أبدانهم تلهبها هذه النار يبعثها القيظ، وإذا هم يشربون حميماً، هذا الحر الذي يأتيهم من الخارج إلى الذي يصيبهم من الداخل، وقد يجرعون، فإن أكلوا فهم في حاجة إلى النوم، وإن لم يأكلوا أخذهم الصداع، ودارت الخمر برعوسهم، فعربدوا وأساء بعضهم إلى بعض. انظروا إلى هذه الأبيات:

فاسمع فإنني للصبوح عائب	عندى من أخباره العجائب
إذا أردت الشرق عند افجر	والنجم في لجة ليل يسرى
وان برد بالنسيم يرتعد	وريقه على الثنايا قد جمد
وللغلام ضجرة وهمهمه	وشتمة في صدره مجممه
يمشي بلا رجل من النعاس	ويدفق الطاس على الجلاس
ويلعن المولى إذا دعاه	ووجه إن جاء في قفاه

وإن أحسّ من نديم صواتا
وإن يكون للقوم سابق يعشق
وراسه كمثل فرق قد مطر
أعجل عن مساوكه وزينته
فأءاهم بقسوة الحفاف
كأنما عض على دماغ
فإن طردت البرد بالسثور (١)
فأي فضل للصباح يعرف
يحبس من رياحه الشمائل
وقد نسيت شرر الكانون
يرمى به الجمر إلى الأحداق
وترك اليناط بعد الحمد
وقطع المجلس في اكتئاب
ولم يزل للقوم شغلاً شاغلاً
حتى إذا ارتفعت شمس الضحى
وربما كان ثقيلاً يحتشم
ورفع الريحان والنبذ

قال مجيئاً طعنة وموتا
فجفنه بجفنه مدبق
وصدغه كالصولجانت المنكسر
وهيئة تنظر حسن صورته
محمولة في الثوب والأعطاف
متهم الأنفاس والأرفاغ
والنجم في لجة ليل يسرى
على الغبوق والظرم مسدف
صوارماً ترسب في المفاصل
كأنه نثار ياسمين
فإن ونى قرطس في الآماق
ذا نقط سود كجلد الفهد
وذكر حرق النار للثياب
وأصبحت جبابهم مناخلا
قيل فلان وفلان قد أتى
فطوّل الكلام حيناً وجشم
وزال عنا عيشنا اللذيذ

(١) في الديوان: "بالسهور".

ولست في طور النهار آمنا
أو خبر يكره أو كتاب
فاسمع إلى مثالب الصبح
حين حلا النوم وطاب المضجع
وانهزم البق وكنّ وقعا
من بدما قد أكلوا الأجسادا
فقرب الزاد إلى نيام
من بعد أن دب عليه النمل
وعقرب ممددة قتاله
وللمغنى عارض في حلقه
وإن أردت الشرب عند الفجر
فساعة ثم تجيك الدامغة
ويسخن الشراب والمزاج
من معشر قد جرعوا حميما
وغيمت أنفاسهم أقداحهم
وأولعوا بالحك والتفرك
وصار ريحانهم كالقوت
وبعضهم يشمي بلا رجلين
وبعضهم محمرة عيناه

من حادث لم يكن قبل كائنا
يقط طيب اللهو والشراب
في الصيف قبل الطائر الصدوح
وانحسر الليل ولذ المهجع
على الدماء واردات شرعا
وطيروا عن الورى الرقادا
ألستهم ثقبيلة الكلام
وحية تقذف سما صل
وجعل وفارة بواله
ونفسه قد قدحت في حذقه
والصبح قد سل سيوف الحر
بنارها فلا تسوغ سائعه
ويكثر الخلاف والضجاج
وطعموا من زادهم سموما
وعذبت أقداحهم أرواحهم
وعصب الآباط مثل المرتك
فكلهم لكلهم ذو مقت
ويأخذ الكأس بلا يدين
من السموم محرق خداه

وبعضهم عند ارتفاع الشمس

فإن أسر ما به تهوسا

وطاف في أصداغه الصداغ

وكثرت حدته وضجره

وهم بالعريضة الوحيدة

وظهرت مشقة في حلقه

وإن دعا الشقي بالطعام

ولكما جاءت صلاة واجبه

فكدر العيش بيوم أبلق

فمن أدام للشقاء هذا

لم يف إلا دنس الأثواب

فازداد سهّا وضنى وسقما

ذا شارب وظفر طويل

ومقلّة مبيضة المآقي

وجسد عليه جلد من وسخ

وهكذا يمضي ابن المعتز فيصف لنا الشارب وقد بلغ بهد الجهد أقصاه:

تخال تحت غبطه إذا عرق

وريقه كمثّل طوق من آدم

في صدره من واكف وقاطر

يحس جوعاً مؤلماً للنفس

ولم يطلق من ضعفه تنفسا

ولم يكن بمثله انتفاع

وصار كالحمي يطير شرره

وصرف الكاسات والتحية

ومات كل صاحب من فرقه

خيط جفنيه على المنام

فسار عليها فتولت هاربه

أقطاره بلهوه لم تلتق

من فعله والتذّه التذاذا

مهوساً مهوس الأصحاب

ولا تراه الدهر إلا فدما

ينغص الزاد على الأكيل

وأذن كحقة الدباق

كأنه أشرب نفطاً أو لطح

لحية قاض قد نجا من الغرق

وليس من ترك السؤال يحتشم

كأثر الذرق على الكنادر

هذا كذا وما تركت أكثر فجروبا ما قلتـه وفكروا

كل هذه العيوب هي عيوب الشرب في الصباح. ومهما اقل فن أبالغ ولن أغلو حين أوصي بقراءة هاتين القصيدتين، لا لأن واحدة منهما تدم الصباح وتحمد الغبوق، ولا لأن الأخرى تتناول حوادث تاريخية قد نجدها في سهولة في الكتب التاريخية، بل لأن في قراءة هذا النوع ما قد يبعث شعراءنا على محاكاة هذا الشعر. وأؤكد لكم أن هذه المحاكاة تعود بشيء كثير على الشعر في هذا العصر، فأجمل ما فيه أنه برئ كل البراءة من التكلف، لم يبحث عن لفظ غريب، ولم يتكلف معنى غريباً، إنما هو يأخذ الأشياء التي حوله، فيعبر عنها بالألفاظ التي تدور على السنة الناس جميعاً.

كا هذا ولم أتحدث إليكم عن ناحيتين قيمتين من شعر ابن المعتز فقد أهملت حياته من حيث وهو رجل من العلماء وصاحب سياسة له مذهبه السياسي.

ابن المعتز العالم السياسي

كان ابن المعتز من كبار العلماء في القرن الثالث، والعلماء في الأدب والغناء بنوع خاص. وكتاب ابن المعتز في الغناء من أقوى الكتب، يعتمد عليه صاحب الأغاني ويقرظه. كان له مذهبه في التلحين وجرت بينه وبين العلماء مناظرات في موضوع يعني به المحدثون الآن وهو: هل للموسيقى والمغنى أن يعتمد إلى لحن قديم فيغير منه بعض التغير ليلائم بين لحنه وحنجرته؟ بمعنى أن الموصلي يستطيع أو لا يستطيع أن يغير بعض التغير في ألحان معبد والغريض.

وكتب ابن المعتز في الشعر وسرقات الشعراء وكتابه في البديع مشهور، والمتقدمون يرون أن ابن المعتز هو الذي وضع علم البديع. أما مذهبه السياسي فهو عباسي خالص قوامه مخاصمة العلويين خصومة عنيفة يذهب فيها مذهب مروان بن أبي حفصة، ويحتج بالحجة التي اخترعها مروان في قوله:

أنى يكون وليس ذاك بكائن
لبنى البنات وراثـة الأعمام^(١)

(١) ظهر بعد إلقاء هذه المحاضرة كتاب الأوراق للصولي وفي القطعة التي عني فيها بشعر أبناء الخلفاء شعر لابن المعتز كثير يمدح فيها عليا وشيعته.

وشعره في هذا كثير، كان يقوله كلما ثار العلويون في الأطراف، وما أكثر ما كان يثور العلويون في الأطراف. وكم كنت أحب أن أقف وأطيل الوقوف عند فن الوصف أو عند الشعر السياسي عند ابن المعتز أو عند المذاهب العلمية المختلفة. أو عند حياة ابن المعتز نفسه من حيث هو أمير، ولكني أرجو أن أكون قد أثرت في نفوسكم شيئاً من الشوق والميل إلى قراءة، كما أثرت في نفوسكم شوقاً إلى قراءة الشعراء الذين تحدثت إليكم عنهم، والذين تجدون في دراستهم لذة قيمة تقدرونها يوم تتعمقون درس هؤلاء الشعراء.

أما بعد أيها السادة، فإني أستاذكم في أن أكثر أجمل اشكر الجامعة الأمريكية وإياكم، لما تفضلت به الجامعة فأتاح لي هذه الفرصة، وما تفضلتم أنتم به من عطف على ومواظبة على الاستماع لهذه المحاضرات. وإن كنت قد أثقلت فإني معتذر إليكم. أما أنني قصرت كل التقصير فهذا شيء لا أشك فيه ولا أخاف يتهمني به إنسان، فأنا أول من يلاحظ هذا التقصير الشديد.